نعم، لا ينفع فيها إلا رجل يعنيه أن يعرف الحقيقة ويؤمن قبل ذلك بأنها حقيقة تستحق عناءها! فكم عندك يا همَّام من أمثال هذا الصديق؟ مئات؟ عشرات؟ آحاد؟

إن الناس يحسبون «الضيق» محك الصداقة الذي لا يكذب ولا يخيب.

والناس في ذلك مخطئون.

لأن الصديق الذي ينجد صديقه في الضيق قد يتخلى عنه وينقلب عليه في أعماق السريرة.

وليست المعونة الصادقة هي المعونة التي تدخل في رقابة العُرف أو في رقابتك أنت بينك وبين صديقك، ولكنها المعونة التي لا حسيب عليها غير الضمير، ولا باعث لها غير اتفاق الهوى وامتزاج الشعور.

كثيرٌ من الأصدقاء يعينون أصدقاءهم في الضيق لأن العرف يحمد لهم هذه المعونة ويتخذهم مثالًا للأمانة والوفاء وجميل الفداء.

وكثيرٌ من الأصدقاء يعينون المرء على الشئون التي يشعر هو بمعونتهم أو بتقصيرهم فيها؛ لأنه يحمد لهم ما صنعوا ويجزيهم بما أسلفوا ويرد لهم ما أقرضوا.

أما الشئون التي لا رقابة عليها للمرء ولا للعُرف فالمعينون عليها أقل من القليل، وهمام أو غير همام سعداء إن ظفروا من كل ألف صاحبٍ بواحدٍ فذٍّ من هؤلاء الأعوان.

في هذه الشئون يستطيع الصديق أن يقصِّر وأنت لا تشعر بتقصيره، وبما قصَّر ولم يؤمن هو بأنه مقصر ملوم؛ لأنه لا يؤمن بجنون العاطفة ونزوات الهوى … فكيف يتقي مغبة التقصير ويصبر في سبيل ذلك على الجهد العسير أو اليسير؟

وإذا انكشف تقصيره فمَن ذا الذي يلومه؟ لعله يلقى يومئذٍ من المعذرة والثناء أضعاف ما يخشاه من العذل والمذمة.

ذلك كله على أهون الفروض.

أما أصعب الفروض فهو أن تنقلب الرقابة إلى مطاردة، والمطاردة إلى اقتناص … وليس أصعب الفروض دائمًا بأبعدها وأندرها في الوقوع!

حيرة جديدة «نجا» إليها همام من الحيرة الأولى … والحيرة الأولى باقية كما كانت في موضعها القديم.

وإن همامًا ليضرب أخماسه في أسداسه ويبرح في ضربه وإيجاعه إذا بالقدر يحل المشكلة العصية أسهل حل مستطاع، وإذا بالسماء تنفتح على حين غرة ويهبط منها الرقيب المنشود!